

شوق و حنين للصّادق الأمين

صَلَّى اللهُ
وَسَلَّمَ
عَلَيْهِ

السيرة النبوية الشريفة
للأطفال

نسخة منقّحة ومدقّقة

تأليف:

أسامة صفراوي

مصنّفات أخرى للمؤلف:

قصص مهارات الحياة (مجموعة قصصية للأطفال)
المرايا والماء (قصة قصيرة للنّاشئة)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ر د م ك: 0 - 520 - 40 - 9938 - 978

نسخة منقّحة ومدقّقة

"وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، مَنْ
يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا
أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا"

النِّسَاء (79، 80)

وَتَطْيِبُ دَقَاتُ الْقُلُوبِ بِذِكْرِهِ -- فَتَنْفِيضُ شَوْقًا دَافِئًا وَعَمِيمًا

هُوَ رَحْمَةُ الرَّحْمَانِ أَشْرَقَ بِالْهُدَى -- صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا

ماجد عبد الله

نبذة

حوار بين الجدّ الحكيم جمال وحفيده الثّيبه عبد الرّحمان ،

يحكي الجدّ مواقف خالدة من سيرة الصّادق الأمين ﷺ

ويستخلص الحفيد بعض الاستنتاجات المفيدة.

مقدمة

مَسَاءَ الْجُمُعَةِ، عُدْتُ مَعَ أَبِي مِنَ الْجَامِعِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ. دَخَلْنَا غُرْفَةَ الْجُلُوسِ، فَوَجَدْنَا جَدِّي جَمَالَ يَقْرَأُ كِتَابًا مُجَلَّدًا بِاهْتِمَامٍ. قَبَّلَ أَبِي رَأْسَ جَدِّي، وَجَلَسَ بِجَانِبِهِ وَهُوَ يَسْأَلُهُ عَنِ أَحْوَالِهِ. ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَى جَدِّي بِفَرَحٍ، وَكُنْتُ أَحِبُّهُ كَثِيرًا فَهُوَ طَيِّبٌ حَكِيمٌ وَالْإِبْتِسَامَةُ لَا تَفَارِقُ وَجْهَهُ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُمْتَعِنَا بِحِكَايَاتِهِ الْجَمِيلَةِ ذَاتِ الْعِبَرِ الْوَفِيرَةِ. ثُمَّ دَفَعَنِي حُبُّ الْإِطْلَاعِ لِمَعْرِفَةِ عُنْوَانِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَأُهُ، فَسَأَلْتُهُ:

- مَا عُنْوَانُ الْكِتَابِ يَا جَدِّي؟ وَمَا مَوْضُوعُهُ؟

فَأَجَابَنِي مُبْتَسِمًا:

- عُنْوَانُ الْكِتَابِ رِيَاضُ الصَّالِحِينَ. إِنَّهُ كِتَابٌ يَحْتَوِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةَ شَرِيفَةً لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ سَأَلَنِي قَائِلًا:

- مَاذَا تَعْرِفُ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ؟

فَأَجَبْتُ:

- أَعْرِفُ أَنَّهُ كَلَّمَا يُذَكَّرُ يَجِبُ أَنْ أَقُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالَ جَدِّي:

- وَهَلْ تُحِبُّهُ؟

أَجَبْتُ مُحْتَارًا:

- كَيْفَ أُحِبُّهُ وَأَنَا لَا أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا؟

فَتَدَخَلَ أَبِي مُلَاحِظًا:

- هَلْ تَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ لَطِيفًا مَعَ الْأَطْفَالِ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ، رَحِيمًا بِهِمْ، نَاصِحًا لَهُمْ؟ وَكَانَ يُعَامِلُهُمْ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ وَيَعْمُرُهُمْ بِالْوُدِّ وَالْحَنَانِ. فَكَانَ ﷺ إِذَا مَرَّ بِالْأَطْفَالِ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَيَمْسُحُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ يَتَلَطَّفُ مَعَهُمْ وَيُشْعِرُهُمْ بِالسُّرُورِ وَالثِّقَةِ.

وَكَانَ ﷺ يَرْفُقُ بِالْأَطْفَالِ وَلَا يُكْثِرُ عِتَابَهُمْ بَلْ يَعْذَرُهُمْ وَيَنْصَحُهُمْ، فَقَدْ كَانَ طِفْلٌ فِي حِجْرِ الرَّسُولِ ﷺ يَأْكُلُ مَعَهُ وَكَانَتْ يَدُهُ تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِرَفْقٍ مُرِيًّا: يَا غُلامَ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ. وَقَدْ كَانَ طِفْلٌ صَغِيرٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَمِيرٍ، يُرِي عَصْفُورًا اسْمُهُ التُّغَيْرُ. فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا رَأَهُ يَقُولُ لَهُ مُدَاعِبًا: يَا أَبَا عَمِيرٍ، مَا فَعَلَ التُّغَيْرُ!؟

وَذَاتَ يَوْمٍ، خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حَامِلًا حَفِيدَهُ الصَّبِيَّ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ. فَتَقَدَّمَ ﷺ وَوَضَعَهُ بِجَانِبِهِ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ. فَلَمَّا سَجَدَ ﷺ صَعَدَ الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِهِ يَلْعَبُ، فَمَكَتِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَطَالَ سُجُودَهُ كَمَا لَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ لَعِبَهُ، فَلَمَّا قَضَى ﷺ الصَّلَاةَ، تَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ إِطَالَةِ سُجُودِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ فِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ

حَدَّثَ أَمْرًا، أَوْ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْكَ! فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ.

وَكَانَتْ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَفِيدَةٌ يَتِيمَةٌ اسْمُهَا أُمَامَةُ، فَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّهَا وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا، وَكَانَ يَأْخُذُهَا مَعَهُ أحيانًا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَحْمِلُهَا وَهُوَ يُصَلِّي، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا عَلَى كَتِفِهِ.

وَكَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهْتَمُّ بِالْأَطْفَالِ وَيُشَجِّعُهُمْ. وَمِنَ الْأَطْفَالِ الْأَذْكِيَاءِ فِي

عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطِّفْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

مَجْلِسٍ، عَنِ يَمِينِهِ الطِّفْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاحُ. فَجِيءَ لِلرَّسُولِ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَبَنِ فِي قَدَحٍ، فَسَمَّى اللَّهُ وَشَرِبَ مِنْهُ وَحَمَدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: أَتَأْتِدُنِي

بِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَأَجَابَ الطِّفْلُ بِشَجَاعَةٍ وَأَدَبٍ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أُؤْتِرُ

بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا! فَوَضَعَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَدَحَ فِي يَدِهِ وَقَدَّمَهُ عَلَى الْأَشْيَاحِ!

وَحَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا غُلَامَ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ. احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ

تَحِذُهُ مُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِي بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ

لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ

اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتْ

الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ.

وَقَدْ دَعَا لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، فَكَبَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ لِيُصْبِحَ حَبْرَ الْأُمَّةِ وَتُرْجَمَانَ الْقُرْآنِ.

اسْتَمَعْتُ بِابْتِهَائِهِ، وَقَدْ انْطَبَعَ حَدِيثُ أَبِي فِي ذَهْنِي، وَدَخَلَ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ فِي قَلْبِي عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَالَ جَدِّي مُبْتَسِمًا:

- مَا رَأَيْتُكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنْ تُحْصِيَ مَسَاءَ كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ لِأَقْصَى لَكَ بَعْضُ
الْمَوَاقِفِ الْعَظِيمَةِ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
أَجِبْتُ مُبْتَهَجًا:

- طَبَعًا يَا جَدِّي! يَسُرُّنِي ذَلِكَ كَثِيرًا!

مَسَحَ جَدِّي جَمَالَ عَلَى رَأْسِي قَائِلًا:

- اتَّفَقْنَا إِذَنْ يَا بَنِيَّ.

تَبَادَلَ أَبِي وَجَدِّي نَظْرَةً رَاضِيَةً وَابْتَسَمَا بِحُنُوقٍ، أَمَا أَنَا فَكُنْتُ أَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْقَادِمِ لِأَتَعَلَّمَ سِيرَةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

* * * * *

التواضع والصدق والأمانة

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، جَلَسْتُ مَعَ جَدِّي جَمَالٍ فِي شُرْفَةِ مَنْزِلِنَا الْمُطَلَّةِ عَلَى حَدِيثَةٍ
فَسِيحَةٍ خَضْرَاءَ تُزَيِّنُهَا أَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ وَأَزْهَارٌ يَانِعَةٌ.
قَالَ جَدِّي:

- مَا رَأَيْتُكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ أَنْ نَبْدَأَ بِذِكْرِ نَسَبِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَبْدَأَ
سَرِيعَةً عَنْ سِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ؟

أَوَمَاتُ بِرَأْسِي مُوَافِقًا، فَسَكَتَ جَدِّي هُنَيْهَةً، ثُمَّ قَالَ:

- لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ عَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ
يُرْشِدُونَ النَّاسَ إِلَى خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَأَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ خَمْسَةٌ: نُوحُ
الصَّبُّورُ الشُّكُورُ، وَابْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَأَبُو الْأَنْبِيَاءِ، وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ، وَعِيسَى
الْمُبَارَكُ، وَمُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ
خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. وَمِنْ أَسْمَائِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحْمَدُ،
الْعَاقِبُ، الْبَشِيرُ، النَّذِيرُ، السَّرَاجُ الْمُنِيرُ. وَوُلِدَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُمِّ الْقُرَى مَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ
عَامَ الْفِيلِ، وَهُوَ الْعَامُ الَّذِي حَاوَلَ فِيهِ أَبْرَهَةَ صَاحِبُ الْفِيلِ هَدْمَ الْكَعْبَةِ فَخَابَ
سَعْيُهُ وَأَهْلَكَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَيَنْتَسِبُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَأُمُّهُ آمَنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ، وَيَعُودُ
نَسَبُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَدْنَانَ بْنِ السَّمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَقَدْ تُوفِّيَ عَبْدُ

اللَّهُ وَالِدُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وِلَادَتِهِ. وَأَرْضَعَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَنِي سَعْدِ فِي الْبَادِيَةِ حَيْثُ ظَهَرَتْ دَلَائِلُ بَرَكَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ تُوفِّيَتْ أُمُّهُ وَعُمُرُهُ سِتُّ سَنَوَاتٍ، فَتَرَبَّى عِنْدَ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَتَّى تُوفِّيَ جَدُّهُ وَعُمُرُهُ ثَمَانُ سَنَوَاتٍ، فَتَرَبَّى عِنْدَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ. وَعَمِلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طِفْلاً فِي رِعْيِ الْغَنَمِ، ثُمَّ شَابًّا فِي التِّجَارَةِ. وَقَدْ شَبَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَفِيفًا كَرِيمَ الْأَخْلَاقِ، وَتَاجَرَ فِي مَالِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَرَزَقَ مِنْهَا جَمِيعَ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ عَدَا اِبْرَاهِيمَ. وَفِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ، نَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاءٍ. فَدَعَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبَائِلَ مَكَّةَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، لَكِنَّ لَمْ يُسَلِّمْ مَعَهُ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَوَّبِلَتْ دَعْوَتُهُ بِالرَّفْضِ وَالْإِيدَاءِ مِنْ زُعَمَاءِ قَرِيشٍ، فَبَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْمُوعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ. وَلَمَّا اشْتَدَّ الْإِيدَاءُ بِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْمُسْلِمِينَ، أَسْرَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَعَرَجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لِيَعْلَمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَفْعَةَ مَقَامِهِ عِنْدَ رَبِّهِ. أَقَامَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ بَعْدَ الْبِعْتَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَى يَثْرِبَ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَاسَّسَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ، وَأَقَامَ فِيهَا عَشْرَ سَنَوَاتٍ تَحَلَّتْهَا مُوَاجَهَاتُ بَيْنِ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ عُرِفَتْ بِالسَّرَايَا وَالْعَزْرَوَاتِ، وَفَتَحَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ فَتَحًا مُبِينًا، وَتُوفِّيَ وَدُفِنَ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. قَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ.

انْقَسَمَتْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي مَكَّةَ إِلَى ثَلَاثِ مَرَاجِلٍ: دَعْوَةٌ خَاصَّةٌ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ فِي مَكَّةَ لِمُدَّةِ سَبْعِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ لِلْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

وَدَعْوَتُهُ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ انْقَسَمَتْ أَيْضًا إِلَى ثَلَاثِ مَرَاجِلٍ: إِصْلَاحُ الْمَدِينَةِ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ إِصْلَاحُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِمُدَّةِ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ دَعْوَةٌ عَالَمِيَّةٌ لِلْعَالَمِينَ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

انْبَهَرْتُ وَقُلْتُ مُسْتَسْتَجًا:

– اِذْنٌ فَالْيَتِيمُ لَيْسَ نَقْصًا وَلَا عَيْبًا، بَلْ إِنَّ الْطِفْلَ الْيَتِيمَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْبِحَ إِنْسَانًا عَظِيمًا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ.

أَجَابَ جَدِّي مُبْتَسِمًا:

– نَعَمْ يَا بَنِي، كَمْ مِنْ يَتِيمٍ مَحْرُومٍ نَشَأَ وَشَبَّ لِيُصْبِحَ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَاءِ التَّارِيخِ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْقَاضِي أَبِي يُوسُفَ قَاضِي الْقَضَاةِ، وَالْإِمَامِ الْفَقِيهِ الْأَوْزَاعِيِّ إِمَامِ الْعَيْشِ الْمَشْرُوكِ. وَفِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ لِحَدِّ أَيتَامًا عَظَمَاءَ مِثْلَ مَالِكُومِ اكس الْمُنَاضِلِ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ السُّودِ، وَنَلْسُونِ مَانْدِيلَا الْمُنَاضِلِ فِي سَبِيلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَلِيُو تُولَسْتَوِي الْأَدِيبُ صَاحِبُ الْحِكْمَةِ.

تَسَاءَلْتُ:

- حَسَنًا يَا جَدِّي. وَإِلَامَ دَعَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ؟
أَجَابَ جَدِّي:

- لَقَدْ دَعَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَالْحُجِّ إِلَى الْبَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. وَدَعَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. كَمَا دَعَا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى التَّحَلِّيِّ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَقَدْ قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.

وَمَنْ أَرُوَعَ مَا قِيلَ فِي فَصَائِلِ الْإِسْلَامِ وَمَحَامِدِهِ قَوْلُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ إِذْ يَعْزِضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفُؤَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجُؤَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفُ. فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِمَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَقَافَتَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنُخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجُؤَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَائِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفُؤَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

اسْتَمَعْتُ بِإِتِّبَاهٍ، ثُمَّ قُلْتُ مُبْهَرًا:

- إِنَّ الْإِسْلَامَ حَقًّا دِينُ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَامِدِ. أَخْبِرْنِي يَا جَدِّي عَنْ صِفَاتِ
الرُّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

أَطْرَقَ جَدِّي جَمَالَ مُفَكِّرًا بِضَعِ لِحَظَاتٍ، ثُمَّ اسْتَوَى قَائِلًا:

- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَلَقَ الْوَجْهَ بَسَامًا، صَادِقَ الْعَهْدِ صَدُوقًا، لَيْنَ الْجَانِبِ
حَلِيمًا، رَحْبَ الصَّدْرِ مُنْصِفًا، هَادِنًا وَقُورًا، حَيًّا صَبُورًا، قَنُوعًا كَرِيمًا، شُجَاعًا
حَكِيمًا، رَفِيقًا رَحِيمًا. وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَاضِعًا مُتَفَانِلًا صَافِي الرُّوحِ مُطْمَئِنِّ
النَّفْسِ سَلِيمِ الْقَلْبِ نَيْرِ الْعَقْلِ نَافِذِ الْبَصِيرَةِ، يَرْجُو الْخَيْرَ لِكُلِّ النَّاسِ. قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى فِي وَصْفِهِ: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم 4)

اسْتَمَعْتُ مُنْبَهَرًا وَكَأَنَّ عَلَى رَأْسِي الطَّيْرُ. ثُمَّ قُلْتُ:

- هَلَّا حَدَّثْتَنِي يَا جَدِّي عَنْ تَوَاضُعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

- يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ، إِنَّ التَّوَاضُعَ مِنَ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ
يَتَحَلَّى بِهَا كُلُّ إِنْسَانٍ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (الفرقان 63)

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ.
فَقِيلَ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ
جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ. وَبَطْرُ الْحَقِّ يَعْنِي عَدَمَ قَبُولِ
الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ يَعْنِي اخْتِقَارَهُمْ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

– إِذَنْ فَالتَّوَاضُعُ هُوَ أَنْ أَتَقَبَّلَ الحَقَّ، وَأَنْ لَا أَحْقِرَ النَّاسَ. وَأَسْتَتِجُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ ثَرِيًّا وَلَا يَحْتَقِرُ النَّاسَ فَهُوَ مُتَوَاضِعٌ رَغْمَ ثَرَاهِ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا وَاحْتَقَرَ النَّاسَ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ رَغْمَ فَقْرِهِ.

– نَعَمْ يَا بُنَيَّ، أَحْسَنْتَ فَهَمًّا. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جَمَّ التَّوَاضِعِ عَلَى رَفْعَةِ قَدْرِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ. فَلَمْ يَكُنْ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ فِي مَجْلِسِهِ عَرْشًا مَلَكِيًّا ضَخْمًا أَوْ كُرْسِيًّا مُتَعَالِيًّا فَخْمًا، بَلْ كَانَ يَجْلِسُ بِبَسَاطَةٍ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، يَلْبَسُ مِثْلَمَا يَلْبَسُونَ، وَيَأْكُلُ مِمَّا يَأْكُلُونَ. فَيَأْتِي الرَّجُلُ إِلَى مَجْلِسِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَلَا يَدْرِي أَيُّ الْجَالِسِينَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ! وَكَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُجِبُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَإِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ لِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ كَرَاهِيَّتِهِ لِذَلِكَ. وَكَانَ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَرْتَدِيَ الثِّيَابَ الحَسَنَةَ الْجَمِيلَةَ فِي غَيْرِ خِيَلَاءٍ وَلَا سَرَفٍ.

وَحَدَّثَ أَنْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَهُ هَابَهُ وَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهَدِّئًا وَمُطْمَئِنِّنًا: هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ.

وَكَانَ مِنْ تَوَاضِعِهِ ﷺ أَنَّهُ يُشَارِكُ فِي شُؤْنِ الْمَنْزِلِ، فَيَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ: يَجْلِبُ شَاتَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَجْدُمُ نَفْسَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ. فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. وَكَانَ لَا يَعْيبُ طَعَامًا قَطُّ، فَإِنْ اشْتَهَى طَعَامًا أَكَلَ مِنْهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ، يُسَمِّي اللَّهُ وَيَأْكُلُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَحْمَدُ اللَّهَ. وَكَانَ يَعُودُ الْمَسَاكِينَ، وَيُجَالِسُ

الْفُقَرَاءَ، وَيَسْتَجِيبُ لِلدَّعْوَةِ، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ مَهْمَا كَانَتْ بَسِيطَةً. قَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ
دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كِرَاعٌ لَقَبِلْتُ.
هَتَفْتُ مُنْشَرِحًا:

- مَا أُرْوَعُ بِسَاطَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا أَجْمَلُ تَوَاضِعَهُ!

- نَعَمْ يَا بُيَّي. وَمِنَ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الصِّدْقُ وَالْأَمَانَةُ. وَلَقَدْ كَانَ
الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلقَّبُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ.

- مَنْ لَقَّبَهُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ وَلِمَاذَا؟

- لَقَدْ لَقَّبَتْ قُرَيْشُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ مُنْذُ رِبْعَانِ شَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ
يُبعَثَ نَبِيًّا رَسُولًا. وَسَابِدًا الْحَدِيثِ بِإِشَارَةِ سَرِيعَةٍ إِلَى قِصَّةِ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ، ثُمَّ
سَاعُودٌ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي قَادِمِ الْأَيَّامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. الْحَجْرُ الْأَسْوَدُ حَجَرٌ مِنْ
الْجَنَّةِ، نَزَلَ بِهِ الْمَلَكُ جِبْرِيْلُ إِلَى سَيِّدِنَا اِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِيَضَعَهُ فِي بِنَاءِ
الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةِ. وَفِي شَبَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَابَ جُدْرَانَ الْكَعْبَةِ تَصَدُّعٌ،
فَاجْتَمَعَ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ لِتَجْدِيدِ بِنَائِهَا، وَشَارَكَتْ فِي عَمَلِيَّةِ الْبِنَاءِ كُلُّ الْقَبَائِلِ.
فَلَمَّا بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ، اخْتَلَفَ الْقَوْمُ وَتَنَازَعُوا يُرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ
أَنْ يَنَالَ شَرَفَ وَضْعِ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ مَوْضِعَهُ. وَاشْتَدَّ التَّرَاغُ وَكَادُوا يَتَقَاتِلُونَ،
فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُحْكِمُوا فِي الْأَمْرِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي مَجْلِسِهِمْ، فَوَاقَفُوا.
فَدَخَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَتَفُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ مُسْتَبْشِرِينَ: الْأَمِينُ ارْتَضَيْنَاهُ!

وَبَعْدَ أَنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا رَسُولًا، صَعِدَ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا، فَنَادَى قُرَيْشًا حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُعْبِرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

قُلْتُ مُسْتَنْبِجًا:

- مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ يَشْهَدُونَ شَهَادَةً بَيْنَهُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ.

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ أَشَدَّ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ بُغْضًا وَتَكْذِيبًا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغَمَ عَلَيْهِ يَقِينًا بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِي نُبُوتِهِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ أَبُو جَهْلٍ بِصِدْقِ نُبُوتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ سَأَلَهُ ابْنُ أُخْتِهِ يَوْمًا: يَا خَالِي، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَ مُحَمَّدًا بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِينَا وَهُوَ شَابٌّ يُدْعَى الْأَمِينِ، فَمَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا قَطُّ. قَالَ: يَا خَالِ، فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو هَاشِمِ الشَّرْفِ، فَأَطَعُمُوا وَأَطَعَمْنَا، وَسَقَمُوا وَسَقَمْنَا، وَأَجَارُوا وَأَجَرْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَانَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ فَكُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ، قَالُوا: مَنَّا نَبِيٌّ. فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟!

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَادِقًا فِي كُلِّ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، حَتَّى فِي وَقْتِ الْمَرْاحِ وَالْفُكَاهَةِ. يَقُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَأَمْرُحٌ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا. فَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُمَارِحُ أَصْحَابَهُ الْكِرَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَحْمَلَهُ، فَقَالَ

عليه وسلم للرجل يمازحه: إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ مُتَعَجِّبًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَصْنَعُ بَوْلَكَ نَاقَةً؟ فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلُ إِلَّا التُّوقُ؟! وَحَثَّ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصِّدْقِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، دِقِّهَا وَجُلِّهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" (التوبة 119)

وَلَقَدْ عُرِفَ الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ النَّاسِ بِأَمَانَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ، فَقَدْ كَانَ عَفِيفًا حَرِيصًا عَلَى آدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُقُوقِ لِأَصْحَابِهَا. اشْتَعَلَ فِي التِّجَارَةِ، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَى تِجَارَةِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَانْبَهَرَتْ بِأَمَانَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ النَّبِيلَةِ ﷺ.

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَتَّقُونَ بِأَمَانَةِ الرَّسُولِ ﷺ ثِقَةً عَصْمَاءَ لَا تَنْفِصُمُ، فَكَانُوا يَحْتَفِظُونَ عِنْدَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَوَدَائِعِهِمْ. وَحَتَّى بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، كَذَّبَهُ زُعَمَاءُ قُرَيْشٍ وَآذَوْهُ وَتَصَدَّوْا لَهُ، لَكِنَّهُمْ أَبَقُوا عَلَى أَمْوَالِهِمْ عِنْدَهُ لِعِلْمِهِمُ الْيَقِينَ بِأَمَانَتِهِ الْعَظِيمَةِ! وَلَمَّا أَدَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، خَلَفَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ لِتَسْلِيمِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. فَتَأَمَّلْ يَا بُحِّي كَيْفَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ مَشْغُولِينَ بِآدَاءِ الرَّسُولِ ﷺ، بَيْنَمَا كَانَ هُوَ مَشْغُولًا بِرَدِّ أَمَانَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ!

وَذَاتَ يَوْمٍ، مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا. فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ ﷺ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ عَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي.

وَقَالَ ﷺ: أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِّنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِّنَ التَّنَافِقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ" (المعارج 32 - 35)

فَتَذَكَّرْ دَوْمًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَنَّ الْكُذْبَ وَالْغِشَّ وَالْعُدْرَ صِفَاتٌ شَنِيعَةٌ مَذْمُومَةٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى التَّبَاغُضِ وَالضَّغِينَةِ وَالْقَطِيعَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَضِيَاعِ حُقُوقِهِمْ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- صَدَقْتَ يَا جَدِّي، وَأَنَا مُتَّكِّدٌ أَنَّ الْغِشَّ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ أَيْضًا أَمْرٌ مَذْمُومٌ.

تَبَسَّمَ جَدِّي جَمَالًا قَائِلًا:

- مُلَاحِظَةٌ ذَكِيَّةٌ يَا بُنَيَّ. بِالطَّبَعِ إِنَّ الْغِشَّ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ الدِّرَاسِيَّةِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ بَلْ مَرْفُوضٌ تَمَامًا، لِأَنَّ النَّجَاحَ بِالْغِشِّ فِي الْإِمْتِحَانِ هُوَ نَجَاحٌ زَائِفٌ بَاطِلٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ. بَلْ إِنَّ مَنْ تَعَوَّدَ عَلَى النَّجَاحِ بِالْغِشِّ حَتَّى إِذَا أَنْهَى مَسِيرَتَهُ الدِّرَاسِيَّةَ وَحَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ جَامِعِيَّةٍ فَهُوَ لَنْ يَشْعُرَ بِالسُّرُورِ، بَلْ سَيَشْعُرُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ بِالْحِزْبِيِّ

وَالْعَارِ وَسَيَحْتَقِرُ نَفْسَهُ. وَتَحْيَلُ طَبِيبًا أَوْ مُهَنْدِسًا أَوْ قَائِدَ طَائِرَةٍ أَمْضَوْا دِرَاسَتَهُمْ
فِي النَّجَاحِ بِالْغَشِّ الْمُتَوَاصِلِ، كَيْفَ سَيَكُونُ أَثْرُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِمْ؟

* * * * *

الحياء والوفاء

في الأُسْبُوعِ الْمَوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- إِنَّ الْحَيَاءَ خُلِقَ إِسْلَامِي نَبِيْلًا، فَالْإِنْسَانُ الْحَيُّ يَتَجَنَّبُ الرِّذَائِلَ وَالْقَبَائِحَ، وَيُبَادِرُ إِلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ. وَعَايَةُ الْأَدَبِ أَنْ يَسْتَحْيِيَ الْإِنْسَانُ مِنَ اللَّهِ. وَحَيَاءُ الرَّجُلِ دَلِيلٌ عَلَى مُرُوءَتِهِ، وَحَيَاءُ الْمَرْأَةِ دَلِيلٌ عَلَى عِفَّتِهَا.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" (التغابن 4)

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ.

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ.

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ.

وَفِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، عِنْدَمَا أُسْرِيَ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دَابَّةِ الْبُرَاقِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَأَشَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّخْفِيفَ، فَخَفَّفَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَتْ خَمْسًا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ثَوَابُ صَلَاةٍ وَاحِدَةٍ

بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ. فَلَمَّا أَشَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرَاجِعَ رَبَّهُ مَرَّةً أُخْرَى فِي تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ، قَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، فَقَدْ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعُذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ أَمْرًا عَرَفَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ فِي وَجْهِهِ. وَقَدْ رُوي فِي صِفَةِ مَجْلِسِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، لَا يَتَنَارَعُونَ الْحَدِيثَ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَكَانَ جُلُّ ضَحِكِهِ تَبَسُّمًا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَكَانَ مِنْ حَيَائِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ أَمْرٌ سَيِّئٌ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ؟ فَلَا يُخَاطَبُ الرَّجُلُ وَلَا يُوجَّهُ كَلَامُهُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً، حَيَاءً وَرِفْقًا بِهِ كَيْ لَا يُجْرِحَهُ أَمَامَ الْآخَرِينَ، بَلْ يُوجَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامُهُ إِلَى عَامَّةِ النَّاسِ فَيَخْطُبُ قَائِلًا: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟ وَفِي هَذَا السُّلُوكِ النَّبَوِيِّ فَائِدَتَانِ عَظِيمَتَانِ، فَالْبُيُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَجَنَّبُ إِحْرَاجَ الرَّجُلِ أَمَامَ النَّاسِ، لِكَيْتَهُ يُوجَّهُ وَيَنْصَحُهُ مِنْ خِلَالِ تَوْجِيهِ عَامٍ لِكُلِّ النَّاسِ فَتَحْصُلُ الْفَائِدَةُ لِلْجَمِيعِ.

قُلْتُ مُسْتَنْبِجًا:

- إِذَنْ يَجِبُ أَنْ اسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ فِي أَقْوَالِي وَأَفْعَالِي قَبْلَ أَنْ اسْتَحْيِيَ مِنَ النَّاسِ، وَيَجِبُ أَنْ أَكُونَ حَيًّا مُؤَدِّبًا فِي كُلِّ أَحْوَالِي، فَإِذَا تَكَلَّمْتُ أَتَكَلَّمُ بِأَدَبٍ، وَإِذَا جَلَسْتُ أَجْلِسُ بِأَدَبٍ، وَإِذَا مَشَيْتُ أَمْشِي بِأَدَبٍ. وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ أَحَدًا أَصْدِقَائِي أَنْصَحُهُ عَلَى انْفِرَادٍ كَيْ لَا أُحْرَجَهُ.

- أَحْسَنْتَ يَا بُيَّيْ.

- حَسَنًا يَا جَدِّي. أَخْبَرَنِي عَنْ خُلُقِ الْوَفَاءِ فِي شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- الْوَفَاءُ يَا بُيَّيْ هُوَ صِيَانَةُ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالْإِعْتِرَافُ بِالْجَمِيلِ، وَحِفْظُ الْوَعُودِ وَالْعُهُودِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة 177)

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْعَى الْمَوَدَّةَ لِأَهْلِهِ، وَيَصُونُ الْوَعُودَ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَيَحْفَظُ الْعُهُودَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ.

أَبْدَأُ بِذِكْرِ وَفَائِهِ لِزَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تَزَوَّجَهَا ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَتْ لَهُ نِعْمَ الزَّوْجَةُ وَخَيْرَ الْعَوْنِ فِي بَدَايَةِ بَعْثَتِهِ، وَأَزْرَتُهُ وَسَانِدَتُهُ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَمَا بَدَأَ نُزُولَ الْوَحْيِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَارِ حِرَاءَ، وَكَانَ مَوْقِفًا شَدِيدًا عَصِيًّا، فَزِعَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَعَ إِلَى زَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ وَجَلًّا يَرْجِفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ: زَمَلُونِي، زَمَلُونِي. فَزَمَلَتْهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوعُ، وَأَخْبَرَهَا بِالْحَدِيثِ الْجَلِيلِ وَقَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ لَهُ بِنَبْرَةِ الزَّوْجَةِ الْحُنُونِ الْوَاتِقَةِ: كَلَّا! أَبَشِرْ، فَوَاللَّهِ

لَا يُجْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا! إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُوَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِئِ الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

وَقَدْ حَفِظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَوْجَتِهِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَوَاقِفَهَا الْجَلِيلَةَ، فَلَمْ يَنْزَوِجْ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهَا إِكْرَامًا لَهَا، وَكَانَ يَذْكُرُهَا بِالْخَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَيَصِلُ أَقْرَبَاءَهَا، وَيُحْسِنُ إِلَى صَدِيقَاتِهَا، وَهَذَا كُلُّهُ وَفَاءً لَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهَا: إِنِّي قَدْ رَزِقْتُ حُبَّهَا.

وَتَزَوَّجَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وَفَاتِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وَمِنْ زَوْجَاتِهِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّاهَا.

وَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لَذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَعِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشُّدْقِيِّنَ، هَلَكْتُ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا. فَعَضِبَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَأَسْتَنِي بِمَا لَهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ التِّسَاءِ.

- وَمَنْ هُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَعَدُّدِ أَزْوَاجِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

- أَرْوَاحُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى عَشْرَةَ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَسَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ، وَرَيْنَبُ بِنْتُ خَزِيمَةَ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَرَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ، وَجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ، وَصَفِيَّةُ بِنْتُ حَبِيبٍ، وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ. وَهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ. وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَرْوَاحُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ يَطُولُ شَرْحُهَا، فَمَثَلًا كَانَ زَوْاجُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِحُكْمَةٍ هِيَ إِبْطَالُ عَادَةِ النَّبِيِّ الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَتَزَوَّجَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ الْأَزْمَلَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رِفْقًا بِجَاهِهَا وَشَفَقَةً عَلَيْهَا وَحِفْظًا لِإِسْلَامِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُسِنَّةً غَيْرَ ذَاتِ جَمَالٍ.

أَوْمَاتٌ مُتَفَهِّمًا، فَاسْتَطَرَدَ جَدِّي قَانِيًا:

- وَمِنْ وَفَائِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبِ الَّذِي رَعَاهُ وَحَمَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَى إِبْلَاحِ دَعْوَتِهِ، لَمَّا حَضَرَتْ الْوَفَاةُ أَبَا طَالِبٍ حَرِصَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَى إِنْقَادِهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ حَتَّى حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمِّهِ بَعْضُ زُعَمَاءِ قُرَيْشِ الْمُشْرِكُونَ.

وَلَمْ يَنْسَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْلَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ الَّذِينَ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ وَآرَزُوهُ وَسَانَدُوهُ، فَهُوَ دَوْمًا يَدْعُوهُمْ وَيُوصِي بِهِمْ خَيْرًا، فَيَقُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِحْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي.

وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ وَقَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَهْدِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، إِذِ اتَّفَقَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو مَنُذُوبِ قُرَيْشٍ عَلَى عِدَّةِ بُنُودٍ، وَمِنْ بُنُودِ هَذَا الصَّلْحِ أَنَّ أَيَّ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ ذَاهِبًا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجِبُ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قُرَيْشٍ. وَبَيْنَمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ بَقِيَّةَ الْبُنُودِ إِذْ جَاءَ مُسْلِمٌ يَتَعَثَّرُ فِي فُيُودِهِ، فَإِذَا هُوَ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ رَاغِبًا فِي اللَّحَاقِ بِالْمُسْلِمِينَ! فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أَقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ. فَقَالَ: إِذَا لَا أَصَاحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. فَرَفَضَ سُهَيْلٌ تَسْلِيمَ أَبِي جَنْدَلٍ لِلْمُسْلِمِينَ رَغْمَ إِصْرَارِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي جَنْدَلٍ: يَا أَبَا جَنْدَلِ! إِصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا. إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صَلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطُونَا عَهْدَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَا نَعْدِرُ بِهِمْ.

* * * * *

القناعة والكرم

في الأُسْبُوعِ الْمَوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– الْقَنَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ رِضَا الْإِنْسَانِ بِمَا لَهُ، وَتَعَفُّفُهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ. وَالْقَنَاعَةُ فِعْلًا كَنْزٌ لَا يَفْنَى، لِأَنَّهَا تُحَقِّقُ الرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ فِي النَّفْسِ، وَتَحْمِي الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْأَطْمَاعِ وَالْأَحْقَادِ وَالْمَفَاسِدِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (التحل 97) وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ.

وَوَحَّصَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرَّ الْقَنَاعَةِ فِي كَلِمَاتٍ بَسِيطَةٍ جَامِعَةٍ فَقَالَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيرَتْ لَهُ الدُّنْيَا.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اِرْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَعْنَى النَّاسِ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْظِرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَعَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ أَحَبَّهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُجِبْكَ اللَّهُ، وَارْهَدْ فِي مَا عِنْدَ النَّاسِ يُجِبْكَ النَّاسُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَنُوعًا رَاضِيًا، زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا. وَقَدْ خَيْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا نَبِيًّا، فَاخْتَارَ ﷺ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا. وَقَدْ تُوفِّيَ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا أَكَلَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ إِلَّا إِحْدَاهُمَا تَمَّرٌ. وَقَالَتْ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ حُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَحَشْوُهُ لَيْفٌ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِهِ. فَتَنَظَّرْتُ فِي خِرَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهَا قَبْضَةٌ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلَهَا قَرُطًا فِي نَاحِيَةِ الْعُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، فَبَكَيْتُ. فَقَالَ ﷺ: مَا يُبْكِيكَ يَا بَنُ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِرَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ قَيْصِرٌ وَكَيْسَرِي فِي التِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِرَانَتُكَ. فَقَالَ ﷺ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَهُمْ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى.

وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَضِيلَةِ الْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَحَارَبَ رَذِيلَةَ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ. فَقَدْ ذَهَبَ الصَّحَابِيُّ حَكِيمُ بْنُ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ الْأَمْوَالِ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَانِيَةً فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَالِثَةً

فَأَعْطَاهُ، وَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَبِّيًا: يَا حَكِيم، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ. وَالْيَدُ الْعُلْيَا (الَّتِي تُعْطِي) خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى (الَّتِي تَأْخُذُ). فَكَانَ حَكِيمٌ بَنَ حَزَامَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ هَذَا الْمَوْقِفِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا وَلَا يَقْبَلُ عَطَاءً مِنْ أَحَدٍ.
قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- إِذْنٌ فَالْتَّعَادَةُ يَا جَدِّي لَيْسَتْ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ.
- أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ، فَسَعَادَةُ الْإِنْسَانِ لَا تُحَقِّقُهَا كَثْرَةُ الْأَمْوَالِ، وَلَا الْقُصُورُ الْفَاحِرَةُ، وَلَا السِّيَّارَاتُ الْفَارِهَةُ. بَلْ إِنَّ سِرَّ السَّعَادَةِ الْحَقَّةِ هُوَ الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ التَّحَلِّي بِالْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ النَّبِيلَةِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ.
أَوْمَأْتُ مُوَافِقًا، ثُمَّ قُلْتُ:

- حَدَّثَنِي عَنْ كَرِيمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا جَدِّي.
قَالَ جَدِّي:

- كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَأَكْرَمَهُمْ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ، فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، إِذْ كَانَ يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَحْتَسِي الْفَقْرَ، وَاتِّقًا بِفَضْلِ اللَّهِ الْوَاسِعِ مُؤْمِنًا بِاسْمِ اللَّهِ الرَّزَّاقِ. فَلَمْ

يَكُنْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ سَائِلًا أَوْ مُحْتَاجًا، مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمِيسُورٍ مِنْ الْقَوْلِ.

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّيْنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا شَيْءٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَأَلَّفُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ الْجُدُدِ بِالْعَطَايَا. فَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ!

وَإِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعْفُهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ.

وَقَدْ جِيءَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَالٍ كَثِيرٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: أَنْشُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ. وَخَرَجَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلَاةِ وَمَمْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَمَا قَامَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَمَّ مِنْهُ دِرْهَمٌ.

وَكَانَ لِكَرَمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَرَّ بِالْعِزِّ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، فَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ قَاصِدِينَ الْعُودَةَ بِالْأَمْوَالِ، وَسُرْعَانَ مَا تَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلْإِسْلَامِ فَيَنْفِذُ إِلَى قُلُوبِهِمْ. يَقُولُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ لَهُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا!

وَإِذَا أَحَسَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَاجَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْعَطَاءَ بِطَرِيقَةٍ دَكِّيَّةٍ تُرَاعِي مَشَاعِرَهُ وَلَا تُوقِعُهُ فِي الْإِحْرَاجِ. كَمَا فَعَلَ مَعَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَمَا كَانَا عَائِدَيْنِ مِنَ الْغَزَوَاتِ، وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ بِفَقْرِ جَابِرٍ وَاحْتِيَاجِهِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْهُ بَعِيرَهُ. وَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ أَمَرَ بِاللَّاءِ أَنْ يَرُدَّ إِلَى جَابِرٍ مَالَهُ وَيَزِيدَهُ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ بَعِيرَهُ. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحْتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى فَضِيلَةِ الْكَرَمِ: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" (آل عمران 92)

* * * * *

الصبر والتفائل

في الأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- مِنْ مَعَانِي الصَّبْرِ يَا بُنَيَّ أَنْ لَا يَجْرَعَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ نُزُولِ الْمَصَائِبِ وَالْمِحَنِ، بَلْ يَتَصَبَّرُ بِالْإِيْمَانِ وَيَسْتَمْسِكُ بِالثِّقَةِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحِكْمَتِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، وَشِعَارُ الصَّابِرِينَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (البقرة 155، 156)

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْقَلَ النَّاسَ هَمًّا لَكِنَّهُ كَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ صَبْرًا، بَلْ لَقَدْ كَانَ ﷺ أَكْثَرَ النَّاسِ تَبَسُّمًا، فَقَدْ كَانَ لَا يَرَى إِلَّا بِاسْمًا ﷺ.

وَلَقَدْ تَعَرَّضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مَكَّةَ إِلَى أَدَى شَدِيدٍ مِنْ زُعَمَاءِ الْكُفَّارِ، وَلَكِنَّهُ ﷺ كَانَ حَكِيمًا وَلَهُ بُعْدُ نَظَرٍ، فَلَمْ يُقَابِلِ الْإِيْدَاءَ بِالْمِثْلِ، بَلْ صَبَرَ عَلَى أَدَى قُرَيْشٍ وَحَثَّ أَصْحَابَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَعَدَمِ رَدِّ الْأَدَى.

وَقَدْ اخْتَارَ ﷺ أَنْ لَا يَرُدَّ الْإِيْدَاءَ بِالْإِيْدَاءِ كَيْ لَا تَحْدُثَ مَعَارِكُ طَاحِنَةٌ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ الْمُكْرَمَةِ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُحِبُّ وَطَنَهُ كَثِيرًا وَيَسْعَى لِحِمَايَتِهِ مِنَ الصِّرَاعَاتِ. قَالَ ﷺ عِنْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ: مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ.

قُلْتُ مُسْتَنْبِحًا:

- إِذَنْ فَمِنْ وَاجِبِ الْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ وَطَنَهُ وَيَعْمَلَ عَلَى حِمَايَتِهِ وَالذُّودَ عَنْهُ
وَالْمُسَاهَمَةَ فِي تَطْوِيرِهِ وَازْدَهَارِهِ.

تَبَسَّمَ جَدِّي قَائِلًا:

- أَحْسَنْتَ فَهَمَّا يَا بُنَيَّ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي
مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَرِفَاقُهُ جَالِسُونَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ
بِسَلَا جَزُورٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَذَهَبَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ
بِالْأَوْسَاحِ، فَاَنْتَظَرَ حَتَّى سَجَدَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَهَا عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ.
فَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ يَتَضَاحَكُونَ وَيَتَمَائِلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَشْرَفَ الْخَلْقِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَطَرَحَتْ
عَنْ ظَهْرِهِ الْأَذَى وَهِيَ تَبْكِي.

وَقَدْ تَمَادَى كُفَّارُ قُرَيْشٍ فِي إِيدَاءِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيدَاءً شَدِيدًا، فَبَيْنَمَا كَانَ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ شَقِيٌّ فَلَوَى تَوْبَهُ وَوَضَعَهُ فِي عُنُقِ الرَّسُولِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَنَقَهُ خَنَقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَخَذَ
بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِلًا: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللهُ؟!

وَأَلْقَدَ رَمَى الْمُشْرِكُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَقْبَحِ الصِّفَاتِ وَأَشْنَعِ النُّعُوتِ ظُلْمًا وَإِثْمًا
وَبُهْتَانًا، فَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ كَاهِنٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ، لَكِنَّهُ قَابَلَ الْإِسَاءَةَ وَالظُّلْمَ
بِالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ. فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ رَحِيمًا بِهِمْ حَرِيصًا عَلَى

إِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ. وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ الْعَزِيزُ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِكْرَهُ، وَكَفَّاهُ شَرَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

بَلْ لَقَدْ كَانَ مِنْ ظُلْمِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَعُدْوَانِهِمْ أَنْ حَاصَرُوا الْمُسْلِمِينَ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ، وَدَامَ الْحِصَارُ الْبَغِيضُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ مَرَّتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَالدَّهْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وَعَدَابٍ. يَقُولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُودِيْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ.

وَتَوَالَّتِ الْأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحِصَارِ، فَمَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يُحَوِّطُهُ وَيَحْمِيهِ، ثُمَّ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي كَانَتْ خَيْرَ مُعِينٍ لَهُ. فَخَرَجَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَهْمُومًا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهِ إِلَى الطَّائِفِ الَّتِي تَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ عَشْرَاتِ الْكِيلُومِتْرَاتِ، وَدَعَا قَبِيلَةَ ثَقِيفٍ إِلَى الْإِسْلَامِ. فَتَطَاوَلُوا عَلَيْهِ وَطَرَّدُوهُ، ثُمَّ أَعْرَضُوا بِهِ سَفَهَاءَهُمْ فَلَا حَقْوَهُ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ وَرَمَى الْحِجَارَةَ، حَتَّى دَمِيَتْ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ قَرَّرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ وَهِيَ أَحَبُّ الْأَمَاكِينِ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ أَنْ لَا مُقَامَ لَهُ فِيهَا. فَبَدَأَ يَعْزِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ الْوَافِدَةِ عَلَى مَكَّةَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ لِيَحْمُوهُ وَيُسَانِدُوهُ وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ عَزْمِهِ وَمُثَابَرَتِهِ أَنَّهُ عَرَضَ دَعْوَتَهُ عَلَى عِشْرِينَ قَبِيلَةً بِصَبْرٍ عَظِيمٍ وَإِصْرَارٍ كَبِيرٍ دُونَ كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ. فَانظُرْ يَا بُنَيَّ إِلَى صَبْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ، وَاَنْظُرْ إِلَى إِصْرَارِهِ

فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ رَغَمَ الْمَصَاعِبِ وَالْأَهْمُومِ وَالْأَحْزَانِ. فَهَوَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَسَلِمُ
لِلْأَحْزَانِ مَهْمَا تَرَكَمَتْ، فَلَا يَتَّكِسُ وَلَا يَكْتَسِبُ وَلَا يَيْئَسُ، بَلْ يُحَوِّلُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْحُزْنَ إِلَى طَاقَةٍ بِنَاءَةٍ وَيُبَادِرُ فِي الْبَحْثِ عَنِ حُلُولِ مُنَاسِبَةٍ لِلْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ
بِإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ وَعَزْمٍ ثَابِتٍ.

- مَا أَعْظَمَ صَبْرَهُ وَمَا أَثْبَتَ عَزْمَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! وَهَلْ كَانَ النَّاسُ يُحْجُونَ قَبْلَ
الْإِسْلَامِ يَا جَدِّي؟

- نَعَمْ يَا بُيَّ. فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ النَّاسُ يُحْجُونَ إِلَى مَكَّةَ حَجًّا وَثَنِيًّا يُفَدِّسُونَ
الْأَوْثَانَ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ. وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ، فَكَانَ
يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَيُنَادِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا! مَنْ
يُؤْيِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أَبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ وَلَكِنَّ أَبَا هَبٍ عَمَّ الرَّسُولَ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْشِي وَرَاءَهُ وَيُحْدِرُ النَّاسَ مِنْهُ، فَيَزِدَادُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَمًّا وَعَمًّا، لَكِنَّهُ لَا
يَنْهَرُ عَمَّهُ وَلَا يُسِيءُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ صَبَرَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ وَتَابَرَ، وَمِنْ مَوَاقِفِ صَبْرِهِ الْعَظِيمِ وَمُثَابَرَتِهِ
الْمُنْقَطِعَةِ النَّظِيرِ أَنَّ عَدَدَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَدَى ثَلَاثَةِ عَشَرَ عَامًا مِنْ دَعْوَتِهِ فِي
مَكَّةَ كَانَ عَدَدًا قَلِيلًا، كَانُوا قَلِيلِي الْعَدَدِ عَظِيمِي الْمَكَانَةِ. فَانْظُرْ يَا بُيَّ وَتَأَمَّلْ
فِي إِرَادَتِهِ الرَّاسِخَةِ وَعَزْمِهِ الَّذِي لَا يَلِينُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وَبَعْدَ مَسِيرَةِ شَاقَّةٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِصْرَارِ وَالْمُثَابَرَةِ، اِلْتَقَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَرًا
مِنَ الْخُزْرَجِ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ. فَجَالَسَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمُ

الْقُرْآنَ، فَأَجَابُوهُ لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَسْلَمُوا. وَفِي الْعَامِ الْمُؤَالِي قَدِمَ وَفَدُّ مِنْ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ بِبَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الْأُولَى، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَثْرِبَ مُضْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَلِّمُهُمُ الْإِسْلَامَ وَيَدْعُو إِلَيْهِ. وَفِي الْعَامِ الْمُؤَالِي قَدِمَ مِنْ يَثْرِبَ وَفَدُّ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ بِبَيْعَةِ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى حِمَايَتِهِ وَمُسَانَدَتِهِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ. ثُمَّ كَانَتْ هِجْرَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ، لِتَبْدَأَ مَرَحَلَةَ بِنَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

قُلْتُ مُنْبَهْرًا:

- سُبْحَانَ اللَّهِ! أَيُّ صَبْرٍ هَذَا وَأَيَّةُ مُثَابَرَةٍ هَذِهِ!

- سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (الزمر 10)

وَقَدْ صَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ فَاجَأَتْهُ الْأَقْدَارُ بِمَوْتِ بَنِيهِ وَنِسَاتِهِ. فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّرَجَةِ سَبْعَةٌ، تَوَالَى مَوْتُهُمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. فَصَبَرَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَبْرًا جَمِيلًا، وَبَكَى يَوْمَ مَوْتِ ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضَى رَبَّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ.

- إِذَنْ فَالْصَّبْرُ يَا جَدِّي لَا يَعْنِي عَدَمَ الْحُزْنِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَدَمُ الْمُبَالَغَةِ فِي الْحُزْنِ، وَأَنْ لَا نَقُولَ إِلَّا مَا يُرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَأَنْ نَقُولَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

- نَعَمْ يَا بَنِيَّ.

- حَسَنًا يَا جَدِي. حَدَّثَنِي عَنْ تَفَاؤُلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

- التَّفَاؤُلُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَتَوَقُّعُ الْخَيْرِ، وَالْحَيَاةُ تَطِيبٌ بِالتَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ. فَالْمُتَفَائِلُ لَا يَسْمَحُ لِلْمَصَائِبِ أَنْ تَرْمِي بِهِ فِي مُسْتَنْقَعِ التَّشَاؤُمِ، بَلْ هُوَ يَرَى فِي الْمِخْنَةِ مِغْنَةً، وَيُبْصِرُ شِعَاعَ الشَّمْسِ يَتَأَلَّأُ مِنْ خِلَالِ السُّحْبِ الْكَثِيفَةِ، وَنُورَ الْفَجْرِ يَنْبُلِجُ مِنْ قَلْبِ الظَّلَامِ الْحَالِكِ. وَمَنْ التَّفَاؤُلُ أَنْ لَا يَسْمَحَ الْإِنْسَانُ لِلْإِحْبَاطِ أَنْ يُحْطِمَهُ، وَلَا لِلْيَأْسِ أَنْ يُسَيِّطِرَ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَبَّ لِلشَّيْطَانِ مِنْ حُزْنِ الْمُؤْمِنِ. وَالْمُتَفَائِلُ لَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، بَلْ يَرْجُو عَوْنَ اللَّهِ وَتَوْفِيقَهُ، وَيَعْتَصِمُ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ رَاجِيًا الْفَرَجَ وَالْخَيْرَ.

لَكِنْ أَحَدَرُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ، يَجِبُ أَنْ نَفَرِّقَ بَيْنَ التَّفَاؤُلِ وَطُولِ الْأَمَلِ، فَالتَّفَاؤُلُ وَالطُّمُوحُ خَصْلَتَانِ مَحْمُودَتَانِ، أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَهُوَ أَمْرٌ مَذْمُومٌ. وَقَدْ لَخَّصَ الشَّاعِرُ هَذَا الْفَرْقَ فِي بَيْتٍ شِعْرِيٍّ جَمِيلٍ:

إِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا - - وَعَمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا

والتَّفَاؤُلُ الْمَحْمُودُ لَا يَكُونُ بِالتَّكَاسُلِ وَالتَّقَاعُسِ، بَلْ يَكُونُ بِالْحِلْدِ وَالْإِحْتِهَادِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ ثُمَّ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (الطَّلَاقِ 2، 3)

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ، وَبُعْجِبُنِي الْفَأَلُ. وَالطَّيْرَةُ هِيَ التَّشَاؤُمُ، وَالْفَأَلُ هُوَ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ الطَّيِّبَةُ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنْ أَمَرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ صِرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. إِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.

وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَفَانِيًا طَمُوحًا فِي كُلِّ أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَلَهُ بَصِيرَةٌ نِيرَةٌ وَبُعْدُ نَظَرٍ، فَكَانَ فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ وَأَحْلَكِ الْمَوَاقِفِ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ مُسْتَمِدًّا تَفَاؤُلَهُ مِنْ مَعِينٍ لَا يَنْصَبُ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ الْحَكِيمِ الْكَرِيمِ.

- أَسْتَسْتَجِبُ يَا جَدِّي أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَوْمًا مُتَفَانًا. وَأَسْتَسْتَجِبُ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَبَتِ الْإِمْتِحَانَاتُ يَجِبُ أَنْ أَبْدُلَ قُصَارَى جُهْدِي فِي الْمُرَاجَعَةِ، ثُمَّ لَا أَعْتَمِدُ عَلَى مُرَاجَعَتِي وَحِفْظِي، بَلْ أَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَأَدْعُوهُ بِالنَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ.

- أَحْسَنْتَ فَهَمَّا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ تَفَاؤُلِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، عِنْدَمَا مَكَثَ فِي غَارِ ثَوْرٍ مَعَ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَقْبَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى الْغَارِ فِي طَلَبِهِمْ. يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ أَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمِيهِ! فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَهْجَةِ الْوَاتِقِ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنَنْكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا!

وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، اتَّفَقَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى حَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَوْقِفًا عَصِيبًا. وَأَثْنَاءَ الْحَفْرِ، اِشْتَكَى الصَّحَابَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَخْرَةً صَخْمَةً صُلْبَةً لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَكْسِيرَهَا. فَجَاءَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً كَسَرَ مِنْهَا ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارَسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً كَسَرَتْ الثُّلُثَ

الْأَخِيرَ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَبْصُرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا.

فَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ ضِعَافُ الْإِيمَانِ فَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ قَائِلِينَ: مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا كُنُوزَ الدُّنْيَا، وَأَحَدُنَا لَا يَأْمُنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ!
هَتَفْتُ مُتَعَجِّبًا:

- أَلِهَذِهِ الدَّرَجَةِ كَانَ الْمَوْقِفُ عَصِيبًا؟!

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ، لَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِعْلًا فِي مَوْقِفِ حَرَجٍ مُحَاصِرِينَ يُوَاجِهُونَ الْمَصَاعِبَ وَالْحُوفَ وَالْجُوعَ! وَلَكِنَّ تَفَاوُلَ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ أَقْوَى مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَتَقَنُّهُ فِي رَبِّهِ رَاسِحَةً، وَحُسْنُ ظَنِّهِ بِهِ لَا يَتَذَبَدَّبُ. وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ، وَتَتَحَقَّقُ بِشَارَاتِهِ ﷺ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَفِي قِصَّةِ إِسْلَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعُهُ ضَعْفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحَيْرَةَ؟ فَأَجَابَ عَدِيٌّ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ ﷺ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ. قَالَ

عديّ مُتَعَجِّبًا: كِسْرَى بِنُ هُرْمُزٍ؟! قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ، كِسْرَى بِنُ هُرْمُزٍ. وَلَيْبَدَلَنَّ
الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ.

وَمَرُّ الْأَيَّامِ وَالْأَعْوَامِ، وَيَقُولُ عَدِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنْ
الْحَيْرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جَوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيْمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بِنِ
هُرْمُزٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَهَا!!
وَلَقَدْ نَحَقَّتْ بِشَارَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثَّالِثَةُ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَلِيفَةِ
الرَّاشِدِ الْخَامِسِ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ يُخْرِجُ بَرَكَاتِ مَالِهِ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ
يَقْبَلُهَا!

* * * * *

الحكمة والشجاعة

في الأسبوع المُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ حَكِيمًا مُتَبَصِّرًا، وَفِي سِيرَتِهِ مَوَاقِفُ كَثِيرَةٌ لِحُكْمَتِهِ

الْبَالِغَةِ وَنَبِيرَتِهِ النَّافِذَةِ. أَتَذْكُرُ قِصَّةَ الْحَجْرِ الْأَسْوَدِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ؟

- نَعَمْ يَا جَدِّي. لَقَدْ وَصَلْتَ فِي حِكَايَتِهَا إِلَى هَتَافِ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ عِنْدَ دُخُولِ

الرَّسُولِ ﷺ: الْأَمِينُ ارْتَضَيْنَاهُ!

- أَخْبَرْتُكَ أَنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ اخْتَصَمُوا خُصُومَةً شَدِيدَةً وَأَوْشَكُوا عَلَى الْإِقْتِسَالِ،

ثُمَّ ارْتَضَوْا الصَّادِقَ الْأَمِينَ ﷺ حَكَمًا بَيْنَهُمْ. فَقَالَ ﷺ: هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا.

فَأْتِي بِهِ، فَوَضِعْ فِيهِ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: لِنَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ

الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا. فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِالْحَجْرِ الْأَسْوَدِ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ

ﷺ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ. فَانظُرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ إِلَى سُرْعَةِ بَدِيهِةِ

الرَّسُولِ ﷺ، فَبِعَقْلِهِ الرَّاجِحِ وَتَفَكِيرِهِ الْحَكِيمِ حَسَمَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخِصَامَ بَيْنَ

قَبَائِلِ مَكَّةَ، وَأَرْضَاهُمْ جَمِيعًا، وَحَبَّبَ بَلَدَهُ وَقَوْمَهُ قِتَالًا حَامِيًا.

وَبَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ وَبَدْءِ الدَّعْوَةِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا

غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران 159)

وَمِنْ ذَلِكَ مَوْفِقُهُ مَعَ صَاحِبِ حِكْمَةِ لُقْمَانَ، فَقَدْ دَعَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: فَالْعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِيَ! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: حِكْمَةُ لُقْمَانَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِعْرِضْهَا عَلَيَّ. فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ، وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَرَأَى أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ. فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَقَوْلٌ حَسَنٌ. وَمِنْ أَمْتَلَةِ قُدْرَتِهِ الْفُذَّةَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُحَاوَرَةِ وَالْإِقْنَاعِ مَا كَانَ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ الْمُنْدِرِ. إِذْ جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى الْحُصَيْنِ، فَقَالُوا لَهُ: كَلِّمْ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنَّهُ يَشْتُمُ آهَتَنَا وَيَسُبُّهَا. فَدَخَلَ حُصَيْنٌ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: أَوْسِعُوا لِلشَّيْخِ. فَجَلَسَ حُصَيْنٌ وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي بَلَّغْنَا عَنْكَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آهَتَنَا وَتَسُبُّهَا؟ فَاسْتَمَعَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَدَبٍ وَحِلْمٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟ قَالَ: سَبْعَةٌ فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِذَا أَصَابَكَ الضَّرُّ، مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ، وَتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ! أَرْضَيْتَهُ فِي الشُّكْرِ أَمْ تَخَافُ أَنْ يُغَلَبَ عَلَيْكَ؟ قَالَ: وَلَا وَاحِدَةً مِنْ هَاتَيْنِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا حُصَيْنُ، أَسَلِمَ تَسَلِمَ. فَكَّرَ حُصَيْنٌ وَقَالَ: إِنَّ لِي قَوْمًا وَعَشِيرَةً، فَمَاذَا أَقُولُ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَهْدِيكَ لِأَرْشِدِ أَمْرِي وَرِزْقِي عِلْمًا يَنْفَعُنِي. فَقَالَهَا حُصَيْنُ، فَلَمْ يَقُمْ

حَتَّى أَسْلَمَ. فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُهُ عِمْرَانُ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. فَفَرَّقَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَوْقِفَ الْمَوْثِرَ وَبَكَى.

وَمِنْ مَظَاهِرِ حِكْمَتِهِ الْقُدَّةِ أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْشَأَ مَدْرَسَةً فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ يَجْتَمِعُ فِيهَا بِالْمُسْلِمِينَ فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَيُسَجِّعُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَيَأْمُرُهُمْ بِعَدَمِ رَدِّ الْأَذَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يُجَنَّبَ وَطَنَهُ الصِّرَاعَاتِ وَالْمَعَارِكِ.

وَلَمَّا اشْتَدَّ إِيْدَاءُ فُرَيْشٍ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، اقْتَرَحَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْهِجْرَةَ إِلَى الْحَبَشَةِ.

تَسَاءَلْتُ قَائِلًا:

- وَلَكِنْ لِمَاذَا اخْتَارَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَادَ الْحَبَشَةِ لِلْهِجْرَةِ دُونَ سِوَاهَا مِنَ الْبُلْدَانِ؟

- كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ النَّجَاشِيَّ النَّصْرَانِيَّ مَلِكٌ عَادِلٌ، فَاقْتَرَحَ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى بِلَادِ النَّجَاشِيِّ، فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ: لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٌ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. وَحِكْمَتُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبُعْدُ نَظَرِهِ فِي هَذَا الْقَرَارِ يَتَجَلَّىانِ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ تَخْفِيفَ الْحِصَارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْعَى إِلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ فِي بِلَادِ بَعِيدَةٍ آمِنَةٍ تَكُونُ مَلَاذًا اِحْتِيَاظِيًّا لِضَمَانِ اسْتِمْرَارِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَانْتِشَارِهِ،

وَيُشَجِّعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْعَالَمِ وَالتَّعَرُّفِ إِلَى ثَقَافَاتِ الشُّعُوبِ لِتَنْمُو شَخْصِيَّاتُهُمْ وَيُكُونُوا تَجْرِبَةً ثَرِيَّةً حِصْبَةً فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ حِكْمَةِ الرَّسُولِ ﷺ تَخْطِيطُهُ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْذُهُ بِكُلِّ أَسْبَابِ الْحِيطَةِ وَالنَّجَاحِ. فَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ وَكَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ اخْتَارَ خَيْرًا يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَذَهَبَ مَعَ صَاحِبِهِ الصَّدِيقِ فِي طَرِيقٍ مُعَاكِسَةٍ لِلطَّرِيقِ الْمَعْرُوفَةِ لِحِدَاعِ الْمَلَّاحِقِينَ، وَمَكَّنَا فِي غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَهْدَأَ الْمَلَّاحِقَةُ وَتَسْتَقَرَّ الْأَوْضَاعُ، وَجَعَلَ ﷺ مِنْ يَأْتِيهِ بِالْأَخْبَارِ وَمَنْ يَأْتِيهِ بِالطَّعَامِ وَمَنْ يَمْحُو آثَارَ مَسِيرِهِ وَصَاحِبِهِ.

- مَا أَذْكَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا أَحْكَمَهُ!

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. وَمِنْ أَوَائِلِ الْقَرَارَاتِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي أَصْدَرَهَا ﷺ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ الْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَلِلْمُؤَاخَاةِ فَوَائِدٌ عَظِيمَةٌ، فَهِيَ تَرْبِيْلُ الْحَوَاجِزِ بَيْنَ الصُّيُوفِ وَالْمُسْتَضْيِفِينَ، وَتَهْتِنُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَهُمْ، فَيَبْنِي الْمُجْتَمَعُ مَتَمَاسِكًا مُتَآزِرًا.

كَمَا يُرَوَى أَنَّهُ ﷺ اتَّفَقَ مَعَ أَهْلِ الدِّمَّةِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ عَلَى مُعَاهَدَةٍ أَشْبَهَ بِدُسْتُورٍ يُنْظِمُ عِلَاقَتَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ، وَيَكْفُلُ لَهُمْ حُقُوقَهُمْ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، وَيَقُومُ عَلَى الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ. وَكَانَ ﷺ حَرِيصًا عَلَى حِفْظِ حُقُوقِ الدِّمِيِّينَ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: أَلَا

مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طَيْبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ (حَصْمُهُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْإِسْلَامُ يَا بُنَيَّ دِينُ السَّلَامِ. فَلَمْ يَكُنِ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْعُنْفِ وَلَا يُحْرِضُ النَّاسَ عَلَى الْفَوْضَى، بَلْ كَانَتْ دَعْوَتُهُ دَعْوَةَ سَلَامٍ. فَكَانَ ﷺ فِي مَكَّةَ لَا يُجْبِرُ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، بَلْ يُطَالِبُ بِالْحُرِّيَّةِ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ. وَفِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَصَحَابَتُهُ الْكِرَامَ يَتَتَاعِيشُونَ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَامٍ وَتَسَامُحٍ وَعَدْلٍ إِلَّا إِذَا نَقَضُوا الْمَوَاطِيقَ وَخَانُوا الْعَهْدَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة 256). وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (الكهف 29).

فَالْمُسْلِمُ مُسَالِمٌ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا وَلَا يَعْتَدِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَلْجَأُ أَبَدًا إِلَى الْعُنْفِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ وَالْعَرَضِ وَالْأَرْضِ. وَالْمُسْلِمُ الْحَقُّ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَهُوَ مِثَالٌ يُجْتَدَى فِي نُبْلِ الْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ كُلِّ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ. قَالَ ﷺ: الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ.

وَيُرْوَى أَنَّ شَيْخًا حَاقِدًا أَثَارَ فِتْنَةً بَيْنَ صَحَابِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ وَصَحَابِيٍّ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَخَاصَمَا وَتَنَارَعَا وَتَنَادَيَا! فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ غَاضِبًا فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ

الْمُسْلِمِينَ! اللَّهُ اللَّهُ! أَيْدَعُوِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟ أْبَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللَّهُ إِلَى
 الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمُ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمُ بِهِ مِنَ
 الْكُفْرِ، وَأَلَفَ بِهِ بَيْنَكُمُ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَهَةٌ.
 فَعَرَفَ الْقَوْمَ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدٌ، فَندِمُوا وَبَكُوا وَتَعَانَفُوا، ثُمَّ انصَرَفُوا
 مَعَ رَسُولِ اللَّهِ سَامِعِينَ طَائِعِينَ. فَانظُرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ إِلَى حِكْمَتِهِ وَسُرْعَةِ بَدِيهَتِهِ
 فِي التَّعَامُلِ الْمُنَاسِبِ مَعَ الْمَوَاقِفِ الْعَوِيصَةِ.

- نَعَمْ يَا جَدِي، كَمَا اسْتَنْتَجُ أَنْ التَّفَاخُرَ بِالنَّسَبِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ.

- أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ، إِنَّ مَنْ يَفْتَخِرُ بِنَسَبِهِ أَحْمَقُ فَهُوَ لَمْ يَحْتَرَهُ، وَمَنْ يَفْتَخِرُ بِشَكْلِهِ
 أَوْ لَوْنِهِ أَخْرَقَ فَهُمَا لَيْسَا مِنْ صَنْعِهِ، فَلَا دَخَلَ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ. وَإِنَّمَا
 يَحِقُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَدَّ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ وَإِنْجَازَاتِهِ النَّبِيلَةِ فَهِيَ نِتَاجُ قَرَارَاتِهِ
 وَاخْتِيَارَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ حِكْمَتِهِ الْقُدَّةِ وَبَعْدَ نَظَرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ مِنْ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ. فَقَدْ
 جَعَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْيِهِ السَّيِّدِ وَبَصِيرَتِهِ الثَّاقِبَةِ مِنْ هَذَا الصَّلْحِ طَرِيقًا إِلَى
 فَتْحِ مَكَّةَ. إِذْ يَسَّرَ صَلْحَ الْحُدَيْبِيَّةِ اخْتِلَاطَ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَفَّارِ فِي سَلَامٍ وَأَمَانٍ،
 وَتَيَسَّرَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ فِي جَوْ مِنْ الْهُدُوءِ وَالْإِطْمِينَانِ، فَأَعْجَبَ النَّاسُ
 بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَقَضَائِلِهِ، فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. لَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ بَعْدَ عَامَيْنِ فَحَسَبُ
 دَخَلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ فَأِيْحًا فِي عَشْرَةِ آلَافٍ!

- مَا أَرُوَعَ حِكْمَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ مُخْتَلَفِ الْمَوَاقِفِ. أَخْبَرَنِي يَا جَدِّي عَنْ شَجَاعَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- الشَّجَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ الْإِقْدَامُ بِثَبَاتٍ وَتَعَقُّلٍ، دُونَ تَهَوُّرٍ أَوْ طَيْشٍ. وَمِنْ مَعَانِي الشَّجَاعَةِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِالْخَطَا وَطَلَبِ الْعَفْوِ. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْجَعَ النَّاسِ، يَعْتَرِضُ عَلَى الظُّلْمِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَيَقِفُ فِي وَجْهِ الظَّالِمِ دُونَ تَرَدُّدٍ أَوْ خَوْفٍ. وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ اِهْمَمِّ وَالْحُرْنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجَبْنِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَعَلَبَةِ الرَّجَالِ.

وَفِي بَدَايَاتِ دَعْوَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَفَ بِشَجَاعَةٍ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا وَنَادَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَأَعْلَنَ عَلَيْهِمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ بِصَوْتٍ جَهْرِيٍّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِإِيمَانٍ رَاسِخٍ وَجَنَانٍ ثَابِتٍ.

- نَعَمْ يَا جَدِّي، عِنْدَمَا قَالُوا لَهُ: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

- وَبَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَاسْتِقْرَارِهِ بِهَا، حَدَّثَ أَنَّ سَمِعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ صَوْتًا عَالِيًا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَزِعُوا وَأَرَادُوا أَنْ يَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، فَانْطَلَقُوا قَبْلَ الصَّوْتِ، وَإِذَا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَائِدًا إِلَيْهِمْ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ رَاكِبًا فَرَسًا بِلَا سَرَجٍ، وَقَدْ بَادَرَ وَسَبَقَهُمْ وَحَدَّهُ لِاسْتِطْلَاعِ الْأَمْرِ فِي شَجَاعَةٍ بَاسِلَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ نَادِرَةٍ. فَقَالَ هُمْ مُهْدِنًا وَمُطْمَئِنًّا: لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا. يَعْنِي لَا تَخَافُوا وَلَا تَفْرَعُوا.

وَيَصِفُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَجَاعَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَثَبَاتَهُ فِي
الْغَزَوَاتِ فَيَقُولُ: كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْوَطِيسُ وَاشْتَدَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ.

وَفِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ أَعْجَبَتِ الصَّحَابَةَ الْكِرَامَ كَثْرَتُهُمْ، فَاَنْهَزُمُوا وَوَلَّوْا عَلَيَّ أَعْقَابِهِمْ
وَفَرَّ أَكْثَرُهُمْ، أَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَثَبَّتَ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِحِ، بَلْ كَانَ مِنْ
شَجَاعَتِهِ أَنَّهُ يُعْلِنُ عَنِ نَفْسِهِ بِقَلْبٍ لَا يَعْرِفُ الْخَوْفُ إِلَيْهِ سَبِيلًا! فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بِصَوْتٍ جَهْورِيٍّ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ! فَاجْتَمَعَ
الْمُسْلِمُونَ حَوْلَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَثَبَّتُوا بِثَبَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَانْتَصَرُوا.

* * * * *

العدل والتعاون

في الأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

- الْعَدْلُ مِنْ مَعَانِيهِ الْإِنْصَافُ وَالْقِسْطُ، وَقَدْ حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَى الْعَدْلِ لِأَنَّهُ قِيمَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ سَلِيمٍ مُتَوَازِنٍ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء 135)

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنْابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَلَّمَا يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهَا فَقَالَ: إِيَّيْ أَحَافُ اللَّهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

وَأَثَبَتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْئُولِيَهُ كُلِّ مِمَّا فِي الْعَدْلِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فَقَالَ: أَلَا كَلِّكُمْ رَاعٍ وَكَلِّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فَأَلَامِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ

مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ. أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وَحَثَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَلَى التَّوَازُنِ فِي أُمُورِ حَيَاتِهِمْ وَمَنْحِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ دُونَ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ. فَقَدْ أَقْرَأَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَا أَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادِلًا فِي بَيْتِهِ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ.

وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِي بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ نَاقَةَ لِبْرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَتْ بُسْتَانَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْ فِيهِ. فَقَضَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْحَوَائِطِ حِفْظُهَا بِالنَّهَارِ، وَأَنَّ مَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَامِنٌ عَلَى أَهْلِهَا.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ الْأَمْوَالَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبتُ وَخَسِرْتُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ.

وَمِنْ أَرْوَغِ مَوَاقِفِ عَدْلِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِصَّةُ الدِّعِ الْمَسْرُوقَةِ، إِذْ سَرَقَ صَحَابِيٌّ مِنْ
 الْخَزْرَجِ دِعًا صَحَابِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ، وَشَهِدَ عَلَى السَّارِقِ صَحَابِيٌّ مِنَ الْأَوْسِ. فَاعْتَمَّ
 النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ السَّارِقَ مُسْلِمٌ، فَسَيِّئَتْهُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ بِالْمُسْلِمِينَ،
 كَمَا سَتَشْتَعِلُ الْفِتْنَةُ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ أَطْفَأَهَا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 بِحُكْمَتِهِ. وَإِذَا بِثَلَاثَةِ مِنَ الْخَزْرَجِ يَأْتُونَ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ: إِنَّ السَّارِقَ
 لَيْسَ مِنَّا، بَلْ هُوَ يَهُودِيٌّ، فَابْعَثْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُفْتِشُ عَنِ الدِّعِ فِي بَيْتِ
 الْيَهُودِيِّ. فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يُفْتِشُ الْبَيْتَ، فَوَجَدُوا الدِّعَ فِي الْحَدِيقَةِ!
 فَطَلَبَ الْخَزْرَجُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُرِيَّ صَاحِبَهُمْ، وَأَنْ يُوَبِّحَ الْأَوْسَ لِافْتِرَائِهِمْ
 الْبُهْتَانَ. فَصَعِدَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ وَبَرَأَ الْمُتَّهَمَ الْخَزْرَجِيَّ، وَوَلَّمَ الْأَوْسَ
 وَأَنْبَهُمْ، بَيْنَمَا الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: لَمْ أَسْرِقْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ الدِّعَ طَرِحَتْ
 عَلَيَّ.

وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِانْتِهَاءِ الْفِتْنَةِ، وَنَامُوا مُرْتَاحِينَ. لَكِنْ يَنْزِلُ جِبْرِيلُ عَلَى الرَّسُولِ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ فَيَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودِيُّ بَرِيءٌ، وَالْخَزْرَجِيُّ هُوَ
 السَّارِقُ. وَأَعْلَنَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَقِيقَةَ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَبَرَأَ الْيَهُودِيَّ
 وَأَثَبَتِ السَّرِقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِ.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْخَزْرَجِيَّ سَرَقَ الدِّعَ، وَحِينَ عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفَ
 بِجُرْمَتِهِ، أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الدِّعِ، فَالْقَاهَا فِي حَدِيقَةِ الْيَهُودِيِّ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْخُرْجِ وَأَقْنَعَهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الْيَهُودِيَّ هُوَ سَارِقُ الدَّرْعِ.

فَهَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ أُرُوعِ أَمَثَلَةِ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي لَا يُجَايِ أَحَدًا وَلَا يَنْحَازُ إِلَّا لِلْحَقِّ.

وَقَدْ أَسَسَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدَةً أَسَاسِيَّةً فِي إِقَامَةِ الْعَدْلِ فَقَالَ: الْبَيْتَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ.

قُلْتُ مُنْبَهْرًا:

- مَا أَعَدَلُهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فَحَدِّثْنِي يَا جَدِّي عَنْ تَعَاوُنِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

- يَا بُيَّيَّ، إِنَّ التَّعَاوُنَ بَيْنَ النَّاسِ يُفْضِي إِلَى مُجْتَمَعٍ مُتَمَاسِكٍ قِيَامُهُ التَّرَاحُمُ وَالتَّضَامُنُ. وَالتَّعَاوُنُ سَبَبٌ رَيْسِيٌّ فِي اسْتِقْرَارِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَازْدِهَارِهَا.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ" (المائدة 2)

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا (وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ).

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ.

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ مُنْدَجِمًا فِي مُجْتَمَعِهِ يُشَارِكُ فِي الْأَنْشِطَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْحَمِيدَةِ. أَتَذْكُرُ يَا بُنَيَّ قِصَّةَ اسْتِثْمَانِ قُرَيْشِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَمْوَالِهَا وَوَدَائِعِهَا؟

- نَعَمْ يَا جَدِّي، وَقَدْ كَانَ مِنْ ظُلْمِ زُعَمَاءِ قُرَيْشِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ فِي إِيْدَاءِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشْغُولًا بِرَدِّ وَدَائِعِهِمْ وَأَمَانَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ. فَمَا أَعْظَمَ خُلُقَهُ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

- نَعَمْ يَا بُنَيَّ. لَقَدْ كَانَ أَمْرُ حِفْظِ أَمْوَالِ قُرَيْشِ وَوَدَائِعِهَا مَسْئُولِيَّةً جَسِيمَةً. فَمَا الَّذِي جَعَلَ الرَّسُولَ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ الْكَبِيرَةَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ؟ إِنَّهَا رَغْبَتُهُ فِي خِدْمَةِ مُجْتَمَعِهِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ حِفْظَ أَمْوَالِهِمْ وَالْإِطْمِئْنَانَ عَلَيْهَا.

- أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِنْسَانًا فَاعِلًا فِي مُجْتَمَعِهِ يَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ لِلنَّاسِ وَيَحْمِلُ هُمُومَهُمْ. وَقَدْ قَرَّرْتُ عِنْدَمَا أَكْبُرُ أَنْ أَنْشِطَ فِي إِحْدَى الْجُمُعِيَّاتِ الْحَيْرِيَّةِ كَيْ أُسَاعِدَ النَّاسَ وَأَكُونَ غُنْصُرًا فَاعِلًا فِي الْمُجْتَمَعِ.

- أَحْسَنْتَ تَفَكِيرًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ عَالِيَةً وَطُمُوحَاتُهُ خَيْرَةً غَيْرَ أَنَانِيَّةٍ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ مُشَارَكَتِهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ أَنَّهُ شَارَكَ قَبْلَ بَعْتِهِ فِي حِلْفِ الْفُضُولِ، وَحِلْفِ الْفُضُولِ هُوَ اجْتِمَاعٌ بَعْضِ قِبَائِلِ قُرَيْشِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَتَحَالَفُهُمْ عَلَى إِفْرَارِ الْعَدْلِ وَمُعَادَاةِ الظُّلْمِ وَرَدِّ الْحَقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا. فَتَعَاهَدُوا أَلَّا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا إِلَّا قَامُوا

مَعَهُ وَأَخَذُوا لَهُ حَقَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَهُ. فَسَمَّتْ قُرَيْشُ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ.
 قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ
 حُمْرُ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ.
 قُلْتُ مُلَاحِظًا:

- أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ مُنْفَتِحٌ يَقْبَلُ الْأَفْكَارَ الْحَيَّرَةَ وَالْأَعْمَالَ
 الْمُفِيدَةَ حَتَّى وَإِنْ كَانَ مَصْدَرُهَا مِنْ خَارِجِ الْإِسْلَامِ.
 - نَعَمْ يَا بُنَيَّ، الْإِسْلَامُ دِينُ الْخَيْرِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَتَقَبَّلُ
 الْمُبَادَرَاتِ الْحَسَنَةَ الْخَيْرَةَ مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهَا. وَالْإِسْلَامُ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْإِنْسَانِيَّةِ
 بَلْ يَسْتَوْعِبُهَا. فَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلتَّعْلِيمِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلْأَمِّ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي ضِدَّ
 الْعُنْصُرِيَّةِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلتَّسَامُحِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلْحِفَاطِ عَلَى الثَّرْوَةِ الْمَائِيَّةِ
 كُلِّهَا أَفْكَارٌ إِنْسَانِيَّةٌ خَيْرَةٌ لَا يَرْفُضُهَا الْإِسْلَامُ بَلْ يُبَارِكُهَا.
 قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.
 وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا.

وَمِنْ أُمَّتِلَةٍ تَعَاوَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ صَحَابَتِهِ الْكَرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ
 إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ تَشَارُكُهُمْ فِي بِنَاءِ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وَهُوَ مَسْجِدُ قِبَاءٍ. فَكَانَ النَّبِيُّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشَارِكُ فِي الْبِنَاءِ فَيَحْمِلُ اللَّبَنَاتِ وَيَضَعُهَا فِي مَكَانِهَا مِنَ الْبُنْيَانِ.

وَفِي غَزْوَةِ الحُنْدَقِ، قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّحَابَةَ الكِرَامَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ
مَجْمُوعَاتٍ، كُلُّ مَجْمُوعَةٍ تَخْفَرُ جُزْءًا مِنْ الحُنْدَقِ. وَكَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشْرِفُ عَلَى
الأَعْمَالِ وَيُشَارِكُ أَصْحَابَهُ فِي حَفْرِ الحُنْدَقِ وَحَمْلِ التُّرَابِ.

* * * * *

نبي الرحمة ﷺ

في الأسبوع المولي، قال جدي:

- إنَّ الرَّحْمَةَ مِنْ أَنْبَلِ الْمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَجْمَلِهَا. فَالرَّحْمَةُ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُحْسِنُ إِلَى الْآخَرِينَ وَيَرْفُقُ بِهِمْ وَيَحْلُمُ عَنْهُمْ. وَمِنْ مَعَانِي الرَّحْمَةِ الرَّأْفَةُ وَلَيْنُ الْجَانِبِ وَالشَّفَقَةُ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمُشَارَكَتُهُمْ آلامَهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْقَاسِي الْعَلِيظُ الْحَالِي مِنَ الرَّحْمَةِ فَهُوَ أَشْبَهُ بِحَجَرٍ صَلْدٍ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَرَحْمِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ" (الأعراف 156)

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ" (هود 90)
وَقَالَ تَعَالَى: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصلت 34)

وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَدْ وَهَبَهُ اللَّهُ قَلْبًا يَفِيضُ رَحْمَةً وَرِفْقًا وَحِلْمًا، فَهُوَ ﷺ يَرْجُو الْحَيْرَ لِلخَلْقِ أَجْمَعِينَ. قَالَ تَعَالَى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء 107)

وَقَالَ ﷺ: الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ.

فَمِنْ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

وَقَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ قَبِيلَةِ دَوْسٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ! فَدَعَا عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِلًا: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا. ثُمَّ قَالَ لِلطُّفَيْلِ: ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَارْتُقِ بِهِمْ.

وَمِنَ الْأَمْثَلَةِ الْحَالِدَةَ لِرَحْمَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ مِنْ رِحْلَتِهِ إِلَى الطَّائِفِ وَمَوْقِفِهِ مَعَ قَوْمِ ثَقِيفِ الَّذِينَ آذَوْهُ وَتَطَاوَلُوا عَلَيْهِ. فَقَدْ سَأَلَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ التَّعَالِبِ (مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ).

فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَطْلَنَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيْلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رُبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ (جِبَالِنِ حَوْلِ مَكَّةَ). فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا بِالضُّعْفَاءِ رَفِيقًا بِهِمْ. وَمِنْ ذَلِكَ رَحْمَتُهُ بِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَرَفَقَهُ بِهِمْ، وَالصُّفَّةُ مَكَانٌ مُظَلَّلٌ فِي آخِرِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَأَهْلُ الصُّفَّةِ هُمْ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَنَازِلُ يَسْكُونُوهَا، فَكَانُوا يَأْوُونَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْمُظَلَّلِ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ. فَعِنْدَمَا اسْتَقَرَّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، قَرَّبَ إِلَيْهِ أَهْلَ الصُّفَّةِ وَرَفَقَ بِهِمْ وَكَانَ يَزُورُهُمْ وَيُجَالِسُهُمْ وَيُطْعِمُهُمْ. وَقَالَ ﷺ: أَبْغُونِي ضِعْفَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضِعْفَائِكُمْ.

وَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةٌ سَوْدَاءٌ تُنْظِفُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا غَابَتْ سَأَلَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ: مَاتَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ ﷺ مُعَاتِبًا: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟ ذُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا. فَآتَى ﷺ قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا.

- أَسْتَسْتَجِبُ يَا جَدِّي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا احْتِرَامُ عَامِلِ النَّظَافَةِ وَالرَّافَةِ بِهِ وَعَدَمُ احْتِقَارِهِ. فَعَمَلُهُ عَمَلٌ نَبِيلٌ، وَهُوَ يُسَاهِمُ فِي الْحِفَاطِ عَلَى الْبَيْتَةِ وَتَجْمِيلِ الْمُحِيطِ.

- أَحْسَنْتَ قَوْلًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. وَقَدْ أَتَى النَّبِيُّ ﷺ رَجُلٌ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ. فَقَالَ ﷺ: أَتَحِبُّ أَنْ يَلِينُ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ إِرْحَمِ الْيَتِيمَ وَامْسَحْ رَأْسَهُ وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ يَلِينُ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ. وَقَدْ حَثَّ ﷺ النَّاسَ عَلَى كِفَالَةِ الْيَتِيمِ، فَقَالَ: أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا (وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوَسْطَى).

وَمِنْ مَوَاقِفِ رَفَقِهِ بِالنَّاسِ وَحِلْمِهِ عَنْهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كَانَ مِنَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ جَهْلًا فِي الْمَسْجِدِ، فَتَارَ إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ غَاضِبِينَ لِنَهْرُوهُ، فَمَنَعَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِلًا: دَعُوهُ وَأَهْرِيغُوا عَلَيَّ بَوْلَهُ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بَعْثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ رَحْمَتِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ جَنَازَةَ مَرَّتْ بِهِ وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتِرَامًا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟ وَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بُسْتَانًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ. فَلَمَّا رَأَى الْجَمْلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنَ، وَقَالَ: لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ فَأَتَى فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ أَيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْنِبُهُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى جِدْعٍ مَنْصُوبٍ فِي الْمَسْجِدِ فَيُخَطِّبُ فِي النَّاسِ، فَصَنَعَ لَهُ صَحَائِبِيٌّ مَنْبَرًا. فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمَنْبَرِ، حَنَّ الْجِدْعُ وَأَنَّ لِفِرَاقِهِ. فَنَزَلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَنْبَرِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْجِدْعِ فَمَسَحَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةَ عَلَيْهِ، ثُمَّ احْتَضَنَهُ حَتَّى سَكَنَ. وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! الْحَشْبَةُ تَحْنُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَوْقًا إِلَيْهِ، أَوْ لَيْسَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرْجُونَ لِقَاءَهُ أَحَقُّ أَنْ يَشْتَاقُوا إِلَيْهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

- مَا أَجْمَلَ رَفَقَ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّاسِ وَحِلْمَهُ عَنْهُمْ! وَمَا أَجْمَلَ رَحْمَتَهُ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!
لَقَدْ سَمِلَتِ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَحَتَّى النَّبَاتِ! فَرَسُوهُ ﷺ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُعَاةِ الرَّفْقِ
بِالْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتِ أَيْضًا! أَسْتَنْجُ يَا جَدِّي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ رَفِيقًا
بِالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَلَا أُؤْذِيهَا، فَهِيَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ عَلَى كَوَكِبِ
الْأَرْضِ، وَهِيَ ثَرْوَةٌ بَيْئَةٌ وَعُنْصُرٌ مِنْ عَنَاصِرِ جَمَالِ الْحَيَاةِ وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ
رَوْقِهَا وَنَهَائِهَا.

- أَحْسَنْتَ فَهَمَّا يَا بُيِّ. أَتَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ عَنْ امْرَأَةٍ دَخَلَتْ النَّارَ
لِأَنَّهَا عَذَّبَتْ هِرَّةً؟ إِذْ حَبَسَتْ الْمَرْأَةُ الْهِرَّةَ فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ
مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتِ الْقِطْعَةُ الْمَسْكِينَةُ هَذَا. كَمَا أَخْبَرَ ﷺ عَنْ
امْرَأَةٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ لِأَنَّهَا سَقَتْ كَلْبًا يَلْهَثُ عَطْشًا.

- إِذَنْ فَالرِّفْقَةُ بِالْحَيَوَانَاتِ وَالرَّفْقُ بِهَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ. سُبْحَانَ اللَّهِ!
- سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ. بَلْ إِنَّ رَحْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِلَتْ
حَتَّى الْجُمَادِ، يَقُولُ ﷺ عَنْ جَبَلٍ أُحْدِ: إِنَّ أَحَدًا جَبَلٌ يُجِنُّنَا وَحُبُّهُ.
وَلِلرَّسُولِ ﷺ مَوَاقِفُ جَلِيلَةٌ خَالِدَةٌ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ. أَتَذْكُرُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ
عِنْدَمَا حَدَّثْتِكَ عَنْ إِيدَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ إِيدَاءً شَدِيدًا؟ حَسَبَ رَأْيِكَ
مَا الَّذِي سَيَفْعَلُهُ بِهِمْ عِنْدَمَا يَدْخُلُ مَكَّةَ عَزِيرًا مُتَّصِرًا؟

- رُبَّمَا يُعَاقِبُهُمْ أَوْ يَسْجُنُهُمْ، أَوْ رُبَّمَا يَنْفِيهِمْ خَارِجَ مَكَّةَ جَزَاءً مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ
ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، أَوْ يَلُومُهُمْ عَلَى الْأَقْلِ وَيُعَاتِبُهُمْ وَيَذَكِّرُهُمْ بِمَسَاوِيهِمْ!

- لَقَدْ أَصْدَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَفْوًا عَامًّا شَامِلًا عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، فِيهِ هَذَا الْيَوْمَ الْعَظِيمِ يَوْمِ النَّصْرِ الْعَزِيزِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ، دَخَلَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ خَافِضٌ رَأْسَهُ تَوَاضِعًا لِلَّهِ. وَقَدْ أَخَذَتِ الْحَمَاسَةُ أَحَدَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ فَهَتَفَتْ: الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ! فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصْحِحًا: بَلْ الْيَوْمَ يَوْمَ الْمَرْحَمَةِ. حَتَّى أَنْ أَبَا سُفْيَانَ وَقَدْ كَانَ مِنْ أَلَدِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَتَمَالِكْ نَفْسَهُ أَمَامَ عَظَمَةِ الْخَلْقِ النَّبَوِيِّ فَقَالَ مُقِرًّا: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَوْصَلَكَ وَأَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ! فَهَا نَحْنُ يَا بُنَيَّ نَتَحَدَّثُ عَنْ سِيرَةِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسَابِعَ، لَكِنْ كُلُّ حَدِيثِنَا غَيْضٌ مِنْ فَيْضِ أَخْلَاقِهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمَائِلِهِ. فَسِيرَتُهُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ مَعِينٌ رَفِيقٌ لَا يَنْضَبُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّمَائِلِ.

أَطْرَقَتْ مُفَكِّرًا فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُنْبَهَرًا بِشَخْصِيَّتِهِ الْعَظِيمَةِ، عَازِمًا أَنْ يَكُونَ قُدُوتِي وَأُسُوتِي. ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا بِجَدِّي عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. فَتَسَاءَلْتُ مُحْتَارًا:

- مَا يُبْكِيكَ يَا جَدِّي؟

- إِنَّهَا دُمُوعُ الشُّوقِ وَالْحَنِينِ لِلصَّادِقِ الْأَمِينِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. أَتَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَقَ إِلَيْنَا؟ فَقَدْ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلصَّحَابَةِ الْكِرَامِ: وَدِدْتُ أَنْيَ لَقِيتُ إِخْوَانِي. فَقَالَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ: أَوْ لَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْني.

ثُمَّ مَسَحَ جَدِّي دُمُوعَهُ وَمَالَكَ نَفْسَهُ، وَقَالَ مُبْتَسِمًا:

- أَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ. وَسَلَوَانَا فِي حَدِيثِهِ الْمُفْرِحِ الْبَهِيحِ إِذْ قَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَلَنَحِبَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كُلِّ قُلُوبِنَا عَسَى أَنْ نَلْقَاهُ عَلَى الْحَوْضِ فَتَشْرَبَ مِنْ يَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرْبَةً لَا نَظْمًا بَعْدَهَا أَبَدًا، وَتَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ بِإِذْنِ اللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ. وَدَلِيلُ حُبِّنَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَهْتَدِيَ بِهُدَاهُ وَنَتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ وَنَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب 21)

وَقَالَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا.

وَالآنَ أَخْبِرْنِي يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟
هَتَفْتُ مُنْشَرِحًا:

- نَعَمْ يَا جَدِّي! لَقَدْ صِرْتُ أَعْشَقُهُ، وَقَرَّرْتُ أَنْ يَكُونَ قُدُوتِي وَأُسُوتِي، فَسَاعَمَلُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ وَحِصَالِهِ النَّبِيلَةِ. وَعِنْدَمَا أَكْبُرُ سَافِرًا الْكَثِيرَ مِنَ الْكُتُبِ عَنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَسْتَفِيدَ مِنَ الدَّرُوسِ الْعَظِيمَةِ وَالْعِبَرِ الْجَلِيلَةِ.

* * * * *

كُلُّ الْقُلُوبِ إِلَى الْحَبِيبِ تَمِيلُ - - وَمَعِيَ بِهِذَا شَاهِدٌ وَدَلِيلُ
 أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذَكَرْتَ مُحَمَّدًا - - صَارَتْ دُمُوعُ الْعَارِفِينَ تَسِيلُ
 هَذَا رَسُولُ اللَّهِ نَبْرَاسُ الْهُدَى - - هَذَا لِكُلِّ الْعَالَمِينَ رَسُولُ
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا عَلَمَ الْهُدَى - - مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ وَسَارَ دَلِيلُ

ابن الحيات

الفهرس

6	مقدّمة
10	التّواضع والصدّق والأمانة
21	الحياء والوفاء
27	القناعة والكرم
32	الصّبر والتّفاؤل
42	الحكمة والشّجاعة
50	العدل والتّعاون
57	نبيّ الرّحمة ﷺ